سُورَةُ التَّوبَةِ

تعريف عام بسورة التوبة

حكايةُ الإجماعِ على مدنيَّةِ السُّورة

سورةُ التَّوبةِ مدنيَّةٌ باتِّفاق، نزلتْ في غزوةِ تبوك سنةَ تِسْع، وابتُدِئَ نزولها عقِبَ فتحِ مكَّة في سنةَ تسعٍ عامَ حجِّ أبي بكرٍ رضي الله عنه، وقد حكَى الإجماعَ على مَدَنيَّتِها غيرُ واحد[1].

وآياتُها مئةٌ وتِسعٌ وعشرون آية في الكوفي، وفي عدِّ أهلِ المدينةِ ومكَّةَ والشَّامِ والبصرة: مئةٌ وثلاثون آية، واختِلافُ العدِّ في ثلاثِ آيات، هي: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، عدَّها البصْريُّ، ولم يَعدَّها الباقون، و﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمَا﴾، عدَّها الشَّاميُّ، ولم يعدَّها الباقون، و﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾، عدَّها المدنيَّان والمكيُّ، ولم يعدَّها الباقون[2].

وهي السُّورةُ التاسعة في ترتيب المصحفِ بعد سورةِ الأنفالِ وقبل سورةِ يونس[3]، وفي ترتيب النُّزول المئة وثلاث عشرة، وترتيبُها في النُّزولِ بعد سورةِ المائدة وقبل سورةِ النَّصر[4].

أسماؤها المذكورة، وسبب تسميتها:

ليس في السُّوَر ما كَثُرَتْ أسماؤهُ مثل التَّوبة والفاتحة

الاسم الأوّل: التَّوبةُ: وهو اسمها الثَّابتُ رِوايةً وشُهرةً، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: «التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ»[5]، وقد كُتِبَتْ في المصاحفِ بهذا الاسم، وفي كتبِ

(1) النَّحاس، النّاسخ والمنسوخ، ص: 477، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/273، وابن حجر، فتح الباري: 8/316، والبقاعي، مصاعد النّظر 2/151، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/342، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/97.

(2) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 160.

(3) السّيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 93.

(4) الزّركشي، البرهان: 1/209، وابن حجر، فتح الباري: 8/734، ودروزة، التّفسير الحديث: 1/16.

(5) متفق عليه، أخرجه البخاريّ، كتاب التّفسير، الحديث رقم: (4882): 6/147، ومسلم، كتاب التّفسير، باب سورة براءة والأنفال والحشر، الحديث رقم: (3031): 4/2322.

التَّفسير والسُّنَّة ومرويَّات الصحابة ﷺ، وجعَلَ الترمذيُّ في جامِعِه ترجمةً بهذا الاسم، والحاكمُ في مُستدركه[1].

ومناسبة التَّسمية بهذا الاسم هي نزولُ السُّورةِ بعهْدِ التَّوبةِ لجميعِ الفئاتِ الواردَةِ فيها من المشركين والمنافقين والمؤمنين، فكثُرَ ذِكْرُ التوبةِ فيها من أوَّلها إلى آخرها ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: 3]، ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [التوبة: 5]، ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: 11]، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: 15]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: 27]، ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: 74]، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 102]، ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: 104]، ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 106]، ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: 112]، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: 117]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 117]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: 118]، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: 126]. وفي تسميتها بالتَّوبةِ مع نزولِها بالبراءَةِ نُكْتَةٌ لطيفة، وهي أنَّ البراءةَ المذكورة لا تزولُ عنهم إلَّا بالتوبة، فالتوبةُ عهدٌ مع اللهِ جديد يَهدِمُ ما كانَ قبلَهُ من نكْثِ العهود والعقوباتِ التي استحقُّوها.

الاسم الثّاني: سورة بَراءة: كُتِبَتْ به في بعضِ المصاحف[2]، ووردَ في بعضِ المرويَّاتِ الثابتة، وفي إطلاقاتِ الصحابة ﷺ، ففي الصحيحِ عن البراءِ بن عازبٍ ﷺ، قال: «آخر سورةٍ نزلتْ براءةٌ»[3]، وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «تعلَّموا سورةَ براءة»[4].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: نزولها بالبراءةِ من عهودِ المشركين والبراءةِ من جميعِ من تشبَّهَ بهم، وشايعَهُم في الوصْفِ أو في الموالاة.

الاسم الثالث: القَرِينَة: (القَرينتان: الأنفال والتّوبة): فعن عثمان بن عفان ﷺ قال:

(1) الترمذي، الجامع الكبير، تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبةس: 5/123، والحاكم، المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة: 2/360.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/95.

(3) أخرجه البخاري، كتاب التفسير وكتاب المغازي، باب ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، وباب حجّ أبي بكر بالناس سنة تسع، الحديث رقم: (4605)، ورقم: (4364): 6/50، 5/167.

(4) أخرجه البيهقيّ في شعب الإيمان: 4/90.

«كانت الأنفال وبراءة تُدْعَيان في زمن رسول الله ﷺ القَرِيْنَتَيْن، فلذلك قَرَنْتُ بينهما، ولم أكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم»[1].

الاسم الرابع: سورة المُبَعثِرة: وهي تسميةٌ منسوبةٌ لابن عباس رضي الله عنهما[2]، وعَن مُحَمَّد بن إسحاق قَالَ: "كَانَت بَرَاءَة تسمَّى في زمَان النَّبِي ﷺ المبَعثِرة، لما كشَفَتْ من سرائر النَّاس"[3]. وعن ثابت بن الحارث الأنصاري أنَّه قال: «ما كانوا يدعون سورةَ التوبة إلا المُبَعْثِرَةَ، فإنَّها تُبعثِرُ أخبارَ المنافقين»[4].

أسماء أخرى لسورةِ التَّوبة:

كثيرٌ من أسماء سـورةِ التَّـوبـة مُتَّحِدٌ في تقرير المعنى نفسه

سورةُ الفاضِحة: فعَنْ سعيد بن جبير، قال: قلتُ لابن عباس: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: (التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا)[5].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: لأنَّها فضَحتْ دَواخِلَ المنافقين بنحوِ قوله فيها: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: 64].

سورةُ العذاب: فعن حذيفةَ رضي الله عنه، قال: «إِنَّكُمْ تُسَمُّونَهَا سُورَةَ التَّوْبَةِ، وَهِيَ سُورَةُ العَذَابِ»[6]. ومناسبةُ التَّسميةِ بهذا الاسم: لمجيءِ الوعيدِ بالعذابِ فيها في نحوِ ستةَ عشَرَ موضعًا من السُّورة[7].

سورةُ المُقَشْقِشَة: فعن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: «وَهل فعل بِالنَّاسِ

(1) أخرجه النَّحَّاس، الناسخ والمنسوخ: 3/208.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/228.
(3) ذكره السيوطي في الدر: 4/121 وعزاه لابن المنذر، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية: 2/554.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 2/244.
(5) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، الحديث رقم: (4882)، 6/147.
(6) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، ص: 130، والحاكم في المستدرك: 2/331، والطبراني في الأوسط، الحديث رقم: (1330)، وابن أبي شيبة في مصنفه، الحديث رقم: (30898)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد، الحديث رقم: (11035): "رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات".
(7) في الآيات من سورة التّوبة: [3]، [14]، [26]، [34]، [39]، [52]، [55]، [61]، [66]، [68]، [74]، [79]، [85]، [90]، [101]، [106].

الأفاعيل إِلَّا هِيَ، مَا كُنَّا ندعوها إِلَّا المقَشقِشة»[1]، يَقصِد سورةَ التوبة. وأورد هذا الاسمَ بعضُ المفسِّرين: كابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، والشوكاني[2].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: فمن قولهم: "قَشَّ من مرضِه: بَرَأَ"[3]، وهذه التسميَة من معاني البراءةِ، فهي مُبرِّئَةٌ من الشِّركِ والنِّفاق؛ لِمَنْ تبرَّأ من صفاتِ المشركين والمنافقين الواردةِ فيها[4].

سورة المُنَقِّرَة: عن عبد الله بن عبيدِ بن عميرٍ ﷺ قال: "كَانَت بَرَاءَة تسمَّى المنقِّرةَ نَقَّرَتْ عَمَّا فِي قُلُوب المشركين"[5]. وذكرَ هذه التِّسمية بعضُ المفسرين: كالبيضاوي، وأبي السعود، والشوكاني[6].

ومناسبةُ التَّسميةِ بهذا الاسم: أنَّ السُّورة قرعَتْ قلوبَ الكافرين والمنافقين، فنقَّبَتْ، وبَحَثَتْ فيها؛ لِتُخرِجَ ما كتَمُوْهُ من العداوةِ والأضغان، وذلك ظاهر في نحو قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64]، والنقْرُ هو قرعُ الشَّيءِ واختراقُه للبَحثِ والتنقيبِ فيه[7]، وتسميتها بذلك كنايةٌ عن الفضيحةِ التامَّةِ لهم بهتْكِ خفاياهم وكشْفِ أستارِهم.

سورةُ البَعُوث (بفتْحِ الباء وضمّها): فعن المقداد بن الأسود قال: «أَتَتْ عَلَيْنَا البَعُوثُ يَعْنِي سُورَةَ التَّوْبَةِ»[8].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: على وجْهِ الفتْح، فهي صيغةُ مبالغة بمعنى اسم الفاعل، باعتبار أنَّ السُّورة بَعَثَتْ ما في قلوبِ المنافقين، وأخرجَتْه للعَلَنِ بعد الكِتمانِ.

وعلى وجْه الضمِّ فالبُعوثُ هي الجيوش التي تجهَّزَتْ للغزو، وهذا ملائِمٌ أيضًا مع

(1) أورده السيوطي في الدرّ المنثور: 4/121، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم ﷺ.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/3، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/389، والرازي، مفاتيح الغيب: 15/223، والخازن، لباب التأويل: 2/237، والشوكاني، فتح القدير: 2/476.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قشش - قشقش).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/235.
(5) أورده السيوطي في الدرّ المنثور، وعزاه لأبي الشيخ: 4/121.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/274، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/39، والشوكاني، فتح القدير: 2/476.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقر)، والراغب، المفردات: (نقر).
(8) أخرجه الحاكم في المستدرك، الحديث رقم: (3282): 2/363.

مضمون السُّورة، وقد وردتْ مادَّة هذه التسميةِ في قولهِ في السُّورة: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة: 46]، أي: خروجَهم مع بُعوثِ الجهادِ.

سورة البَحوث: (بفتْحِ الباء وضمِّها) فعن المقداد بن الأسود قال: «ائْتِ عَلَى سُورَةِ البحوثِ: قَالَ اللهُ ﷻ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ [التوبة: 41]»[1]، وهي صيغةُ مبالغةٍ من البَحْثِ بمعنى اسم الفاعل[2].

وهذه التَّسميةُ في نفْسِ معنى تسميتِها بالمنقِّرة والبَعوث، فهي بحثَتْ، وبَعَثَتْ، ونقَّرتْ عمَّا في القلوبِ وكشَفَتْه.

سورة الحافِرة: ذكَرَها بهذا الاسم غيرُ واحدٍ من المفسِّرين، كالزَّمخشري، وابن الجوزي، والرازي[3]، ذلك أنَّها تَحفرُ قلوبَ أَهلِ النِّفاق، فتُخرِجُ ما فيهم من رُكامِ الرِّجْسِ ورَمَادِه، بمثل قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [التوبة: 110]، ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: 77][4].

سورة المُثِيرَة: فعن قَتادةَ قال: (كانت هذه السُّورة تسمَّى الفاضحة - فاضحة المنافقين - وكان يقال لها: المثيرة - أنبأت بمثالبِهم وعوراتِهم)[5].

سورة المُنكِّلَة: أي: المُعاقِبةُ التي جاءتْ بالنَّكالِ والعِبْرَةِ الرَّادِعة، ووقعتْ هذه التَّسمية عند عددٍ من المفسِّرين غير منسوبةٍ لمصدرٍ أو قائل[6].

سورة المشرِّدة: سمِّيتْ بذلك؛ "لأنَّها شرَّدتْ جموعَ المنافقين وفرَّقتهم"[7]، ويُكأنَّها تطبيقٌ لقولِه تعالى في سورةِ الأنفال: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأنفال: 57].

---

(1) أخرجه ابن المبارك في الجهاد، حديث رقم: (103، 104)، والحاكم في المستدرك: 2/118، 333، 3/349، والشيباني في الآحاد والمثاني، حديث رقم: (290)، وابن أبي شيبة في المصنَّف، حديث رقم: (19758)، والبيهقي في السنن الكبرى: 9/21، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(2) الألوسي، روح المعاني: 5/235.

(3) الكشاف: 3/5، وزاد المسير: 3/389، ومفاتيح الغيب: 15/223.

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/227.

(5) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، الحديث رقم: (10045): 6/1829.

(6) الزمخشري، الكشاف: 2/136، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/172، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/114، والسخاوي، جمال القراء: 1/36، والسيوطي، الإتقان: 1/173.

(7) الخازن، لباب التأويل: 2/332.

سورة المُخزِيَة: سمِّيتْ بذلك لافتتاحها بخزي الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ [التوبة: 2][1].

سورة المُدمدِمَة: نُسِبَتْ هذه التَّسمية لسفيان بن عُيَيْنَة[2]، ووجْهُ تسميتها بذلك أنَّها جاءتْ بالوعيدِ المُطبِقِ عليهم المُهلِكِ لهم، من دَمْدَمْت الشَّيءَ: ألزقته بالأرض، أي: سوَّيته بها أو فوقها بضغط شديد، كما قال الله تعالى: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ [الشمس: 14]، أي: فهُدِّمَت مساكنهم عليهم، ودُفِنُوا تحتها، أو ابتلعهم الأرض، واندَمَّتْ عليهم، وهكذا حال هذه السُّورة كشفتْ خبايا المنافقين، وهتكت نيَّاتِهم ودواخلهم، فهدَّمت ما يخطِّطون، ويرجون.

ووردت هذه التَّسمية عند كثيرٍ من المفسِّرين: كالزّمخشري، والرّازيّ، والبيضاويّ، والنّسفيّ[3].

المقاصدُ الكبرى للسُّورة:

أوّلاً: الكلامُ على أحكام العهود الَّتي بين النَّبيِّ ﷺ وبين المشركين، وما يتبع ذلك من حالة حربٍ وأمنٍ، وبيان أحكام الوفاء والنَّكث، وتقرير البراءة من المشركين، ورفع العصمة عن أنفسهم وأموالهم.

ثانيًا: إعلانُ مواجهة أهل الكتاب المحاربين حتى يعطوا الجزيةَ، وذمُّ ما أدخله الأحبار والرُّهبان في دينهم من العقائد الباطلة، وبيانُ تكالبهم على الأموال، وأنَّهم ليسوا بعيدين عن أهل الشِّرك.

ثالثًا: بيانُ حرْمَة الأشهرِ الحُرُم، وإبطالُ ما كان يفعلُه العرب في الجاهلية من تقديم بعض الأشهر أو تأخيرها حَسَب رغباتهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/136، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/172، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/114، والسخاوي، جمال القراء: 1/36، والسيوطي، الإتقان: 1/173.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/235.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/5، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/223، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 2/274، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/101.

رابعًا: حثُّ المسلمين على نصرة النبي ﷺ في العسر واليسر، وأنَّهم إنْ لم ينصروه؛ فاللهُ ناصرُه، وتذكيرُهم بنصر الله لرسوله ﷺ عندما أنجاه من كيد المشركين في حادثة الهجرة، وبنصره له يوم حُنَين، وبيانُ جملةٍ من حقوق النَّبيِّ ﷺ على المؤمنين؛ كوجوب محبَّتِه، والتزامِ هديه، وتحريمِ إيذائه والقعود عن الخروج معه في الجهاد.

خامسًا: التَّنويهُ بغزوة تبوك والإشارة إلى التجهُّز لها، وذمُّ المنافقين المتثاقلين، والمعتذرين والمستأذنين في التخلُّف بلا عذرٍ، والمخذِّلين عن الخروج للغزو، والتَّنويهُ بالغزوة وجيشها، وذكرُ الذين تاب الله عليهم من المتخلِّفين عنها.

سادسًا: فضْحُ أساليب المنافقين وتخذيلهم للمؤمنين؛ حيث ذُكِرت صفاتُهم الواحدة تِلْوَ الأخرى؛ فذكرت السُّورةُ أذاهم لرسول الله ﷺ، وأَيمانَهم الكاذبةَ، وأمْرَهم بالمنكرِ ونَهْيَهم عن المعروف، وكَذِبَهم في عهودهم، وسُخْريَتهم بضعفاء المؤمنين، فلم تَدَعْ لهم سِترًا إلَّا هتكتْهُ، وفي ضمن ذلك جاءَ أمرُ النَّبيِّ ﷺ بجهادهم، ونهيُه عن الاستغفار لهم والصلاةِ على موتاهم.

سابعًا: مقابلةُ صفات أهل الكفر والنِّفاق وجزائهم بأضدادها من صفات المؤمنين وجزائهم، والتنبيهُ على فضل أبي بكرٍ ﷺ وفضل المهاجرين والأنصار ﷺ، والإشارةُ إلى فضل مسجدِ قباء ومسجدِ الرسول ﷺ.

ثامنًا: الحثُّ على الصَّدَقةِ، والتَّوبةِ إلى الله، والعملِ الصالح، والأمرُ بالفقه في الدين ونشرِ الإسلام.

تاسعًا: امتنانُ الله على المسلمين بأن أرسلَ فيهم رسولًا منهم اتَّصف بصفات فيها كلُّ خير لهم كالرَّحمة والشفقة؛ حثًّا لهم على متابعته والتخلُّق بأخلاقه [1] ﷺ.

بيانُ مناسبةِ السُّورةِ للسّورة قبلها:

سورةُ الأنفالِ نزلتْ في غزوةِ بدر، وسورة التوبة نزلتْ في غزوةِ تبوك، فكانت الأنفال في أوَّلِ غزوةٍ للرَّسول ﷺ في رمضان في السَّنةِ الثَّانيةِ من الهجرة، وكانت التَّوبة في

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/100، وعبد الله شحاته، أهداف كلّ سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ص: 109.

آخرِ غزوةٍ له ﷺ في رجب في السَّنة التَّاسعة من الهجرة، فاجتمعتِ السُّورتان على تقريرِ الهدفِ نفسه، وهو ذكر أحكام القتالِ في زمانينِ متباينين، فسورةُ الأنفالِ في المبدأ وسورة التوبةِ في المنتهى[1].

الأنفالُ تُعبِّر عن ضعفِ شوكة المسلمين، والتّوبةُ تعبِّر عن القوّةِ والتَّمكين

بيانُ محورِ سورة التّوبة والموضوعات التي تأتلفُ وتلتفُّ حوله:

غرضُ السُّورة: ضبطُ العلاقاتِ من الولاياتِ والعَداوات بين المؤمنين وغيرهم

تدورُ موضوعاتُ السُّورةِ حولَ غايةٍ مركزيَّةٍ تُحلِّقُ حولها، وتلتئِمُ عليها، وهي ضَبْطُ العلاقةِ من الولاياتِ والعَدَاوات بين المسلمينَ والمشركين، وضبْطُ علاقتِهم مع غيرهم من الطَّوائفِ المنحرفة في أهلِ الكتاب والمنافقين.

ولكون سورةِ التَّوبةِ مِن آخرِ ما نزل مِنَ القرآنِ الكريم، فهي سورةٌ تتناولُ العديد من الموضوعات والمقاصد التي تهمُّ المجتمع المسلم في علاقاتهِ مع الآخرين، فبيّنت السورة المنهاج الذي يجب أن يسلكَهُ المؤمنون في مواجهة الشِّرك والكفرِ والنِّفاق، وفي تحقيق العزَّةِ والتَّمكين للدِّين الحقِّ، والسُّورة إذْ تَنعقِد لهذا الغرض، فهي تبني هذا الضبْطَ على أساس الموالاة المتجرِّدة لله ورسولهِ فقط، وهي تُحاكِمُ على هذا المعيارِ دون تساهلٍ في الميزانِ به ودون اعتبار غيرِه من الموازين.

وموضوعاتها تبدأ بحسمِ العلاقاتِ مع المشركين في كافَّةِ معاهداتِهم على تباين أحوالِهم في النَّكثِ أو الوفاء، أو الخضوع بالإسلام أو البقاء على الكفر، وفصَّل ذلك، ولم يُغفِل فيه شيئًا.

وفاصَل بين المؤمنين والكافرين في ولايةِ المسجد الحرام والقيام عليه، وجعَلَ المؤمنين أحقَّ وأولى به، وفاصَلَ بين المؤمنين والكافرين في الولايةِ والانحيازِ، وحرَّمَ أن يكونَ الكافرُ من ذوي القربى أو أيُّ شيءٍ من عرَضِ الدُّنيا في المنافع والتِّجارات أحبَّ وأولى في التقديم

(1) رضا، تفسير المنار: 10/133، وطنطاوي، الوسيط: 6/184.

والاعتبار من أحكامِ اللّه ورسولِهِ وإعلائهما فوقَ كلِّ اعتبارٍ، فهي مُفاصَلةٌ حاسِمَةٌ ضابِطةٌ مع الخصومِ المُجاهرين ومع الأقاربِ المشركين، ومع الأشياء النفعيَّةِ مِنَ الأعراض والأغراض.

ثمَّ يأتي حسْمُ العلاقةِ وضبطُها مع الذين لايؤمنون باللّه ولا باليوم الآخرِ من أهلِ الكتاب والتَّحذير من مسلكِهم في الاعتقادِ، وإعلاء يدِ المؤمنين عليهم بفرضِ الجزيةِ عليهِم أن يدفعوها، وهم خَجِلون وجِلون من انحرافِهم وفسادِ مَسْلَكِهم.

ثمَّ تتفرَّغ السُّورةُ بعدئذٍ لفضْحِ المنافقين المندسِّين مُستخْفِي النِّيَّات والطَّوِيَّات فتفضحُهم بالبرهانِ؛ لتؤسِّسَ لِمعاملةٍ جديدةٍ معهم من الحزم والرَّدع والمجاهرة بالعداوة، وفي نفْس الوقتِ تحذِّرُ المؤمنين الصَّادقين أن يحذروا مسلَكهم في الحرص والجُبنِ والشُّحِّ والتخلُّفِ عن الجهاد وإخلافِ العهود مع اللّه في النَّفقةِ وإخراجِ حقِّ المالِ.

ثمَّ بعد تجليةِ كافَّة المواقِف وكشْفِ حقيقةِ الأشخاصِ والفئاتِ، تتفرَّغُ السُّورة لضبطِ علاقاتِ المؤمنين بعضِهم مع بعض، وأنَّ الأصل فيها الولايةُ على طاعة اللّه ورسوله وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، فإذا حصلَ إخلالٌ أو تقصير من أحدهم؛ فالحكمُ في ذلك للّه ورسوله، وهم في تفاعلِهم مع إخلالهِ وتقصيرهِ تَبَعٌ للّه ورسوله؛ ولذا حدَّدَتِ السُّورةُ كيفيَّةَ التَّعامل مع أولئك المقصِّرين، وبيَّنتْ فئاتِهم، كالثَّلاثة الذين خُلِّفوا، والآخَرين المُرجَوْنَ لأمرِ اللّهِ، والذين اعترفوا بذنوبهم، وبيَّنتْ من هم أصحابُ الأعذار في القعود عن الجهاد على جهةِ الحقيقة، ومن هم أصحابُ الأعذار على جهةِ الزَّيفِ والادِّعاء، وحكمَ كُلٍّ وعاقبتَهُ، هذه السُّورةُ حدَّدتْ جميعَ الأصناف والفئات؛ لتُقِيمَ من ذلك تحديدَ العلاقاتِ مع كلِّ صنفٍ بما يناسبُهُ: إمَّا بالبراءة الكاملةِ منه، وإمَّا بالتماسِ العذرِ له، وإمَّا بتصفيةِ صفوفِهم منه وانتزاعه من الانتسابِ إليهم كالمنافقين بتحريم الاستغفار لهم أحياءً، والصلاةِ عليهم أمواتًا، وكتحريم الاستغفارِ للمشركين، ولو كانوا أولي قربى من بعدِ ما تبيَّن لهم أنَّهم أصحابُ الجحيم[1].

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 187، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/503.

الفرائد اللفظية في السّورة:

﴿كَسَادَهَا﴾ [24]، ﴿مَوَاطِنَ﴾ [25]، ﴿نَجَسٌ﴾ [28]، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ [30]، ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾ [35]، ﴿جِبَاهُهُمۡ﴾ [35]، ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [46]، ﴿يَجۡمَحُونَ ۝٥٧﴾ [57]، ﴿جُرُفٍ﴾ [109]، ﴿هَارٍ فَٱنۡهَارَ﴾ [109].

تلك عشْرَةٌ كاملةٌ من الكلمات انفردتْ بها السُّورةُ عن غيرها.

وهذه التراكيب المُفردَة والمتفرِّدَة، تعبِّرُ في شِدَّتِها الدلاليَّةِ عن حالةِ الطوارئِ الَّتي تَسْري بها حركةُ السُّورةِ وإيقاعُها، وذلك على النحو التالي:

الكلمة الأولى: ﴿كَسَادَهَا﴾ [24]، في قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، فوصْفُ التِّجارةِ بالكسادِ، وهو الشَّيءُ الدُّونُ الرَّديءُ الَّذي لا يشتمِل على منفعةٍ[1]، تعريضٌ بأنَّ اللّٰه ورسولَه في مقامٍ عظيم، فلا يَنبغِي أن يُؤثَر شيءٌ في الحُبِّ على هذا المقام، فيصير هذا المقامُ في رُتْبَةِ الدُّوْنِ والزَّهادة، بإيثارِ التِّجاراتِ عليه خشيةً من كسادها، فيرضَونَ للّٰه ورسولِه من الزَّهادةِ والدُّوْن ما لا يرتضونه لتجاراتِهم، والسُّورةُ كلُّها مبنيَّةٌ على تمحيضِ أحكامِ اللّٰه ورسوله للاعتبار الخالصِ والاعتدادِ التامِّ.

الكلمة الثانية: ﴿مَوَاطِنَ﴾ [25]: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾، فالمواطِنُ هنا هي مقاماتُ الحربِ ومواقِفُها[2] وغزواتُها، وهي كلمةٌ معبِّرةٌ عن حركةِ السُّورةِ العامَّةِ في الغزوِ والجهادِ وامتحانِ النَّاسِ بنَدْبِهم للقتالِ وعدمِ التَّخلُّفِ والتَّخاذُل.

الكلمة الثالثة: ﴿نَجَسٌ﴾ [28]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ وهي صِفةٌ مشبَّهةٌ[3] بجعلِ النَّجاسةِ المعنويَّةِ وصفًا ملازِمًا لهم، والتَّعبيرُ بتلك الكلمةِ خيرُ شاهدٍ على معنى البراءةِ من المشركين، فنجاستُهم الشِّركيَّةُ أحدُ عِلَلِ البراءةِ منهم.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسد).

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/672.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/159.

الكلمة الرابعة: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ [30]، في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، فكلمة ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ تعبِّرُ عن شدَّةِ مُشابهةِ اليهودِ والنَّصارى بالمشركين التي أتتِ السُّورةُ بالبراءةِ منهم، فكأنَّه قيل: إنَّ الكفرَ كلَّه مِلَّةٌ واحدة، والمشركون واليهود والنصارى والمنافقون جميعهم في سَلَّةٍ واحدةٍ، وهم أخلاطٌ متشابهون، ولذا جاءتِ السُّورةُ تضبطُ العلاقاتِ معهم جميعًا بالميزانِ والحُكْمِ نفْسِه.

الكلمة الخامسة والسادسة: ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾ [35]، ﴿جِبَاهُهُمۡ﴾ [35]، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾، فـ"الكيُّ أن يُوضَع على الجِلْد جمْرٌ أو شيءٌ مُشتَعِل، والجِبَاه جمع جبهةٍ، وهي أعلى الوجْهِ مما يَلِي الرَّأسَ"[1]، وهما لفظانِ يعبِّرانِ عن مدى النِّقمَةِ عليهم لمَّا خانوا عهْدَ اللهِ في أموالهم، فكنزوها، وبَخِلوا بها، فاللَّفظانِ واردانِ في سياقِ العهْدِ، كما السُّورةُ كلُّها واردةٌ في العهودِ والعقوبةِ على الإخلالِ بها.

الكلمة السابعة: ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [46]، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾أي: "فكَسَّلَهُمْ، وضَعَّفَ رَغْبَتَهم في الانبعاثِ"[2]، وهي كلمةٌ تعبِّرُ عن المبالغةِ في رفضِهم ونبْذِهم والتبرُّؤِ من أفعالهم لمّا نبذوا عهودَهم مع اللهِ بالكذبِ والنِّفاق، فالكلمةُ واردةٌ في معنى النَّبْذِ والبراءة الَّتي انْبَنَتْ عليها السُّورةُ.

الكلمةُ الثامنة: ﴿يَجۡمَحُونَ ۝٥٧﴾ [57]، ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ واختيارُ لفظةِ الجُموحِ لتصويرِ "شِدَّةِ حِرصهم على الفرارِ والاختباءِ دون أيِّ تراخٍ"[3]، وهو وصْفٌ للدَّافِعِ النفْسيِّ مِنْ حاجِزِ النُّفورِ بينهم وبين أحكام اللهِ وعهودِه إليهم، بما حملَهم على التَّخلُّفِ عن الغزو وعلى خيانةِ اللهِ ورسوله وهو مدارُ السُّورةِ وموضوعُها.

الكلمةُ التاسعة والعاشرة: ﴿جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ﴾ [109] في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 10/179.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/683.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/334.

نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا التركيبُ من الفَرائِدِ، تقريرٌ لأعمالِ هؤلاءِ جميعًا أنَّها قائمة على غيرِ أساسٍ صحيح، بتمثيلِها بمن يؤسِّسُ بِناءً على طرَفِ حُفْرةٍ آيِلَةٍ للسُّقوط، فمتى وضَع البناءَ انجرفتْ به، وانهارتْ، وسقطَ معها بناؤه وهَوَى، وهو تمثيلٌ يومِئُ بِشِدَّةٍ إلى أنَّ أعمالهم لا تَصِحُّ إلا بتجديدِ العهدِ مع اللهِ بالتَّوبةِ إليهِ والبراءةِ ممَّا سواه، وهو العملُ بحاصِلِ عُنوانِ السُّورةِ ومضامينِها.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»